الفصل الرابع:

التطوع الصحي تاريخيًا
مع أهم النماذج البارزة

اعتمد الإنسان البدائي على ما تجود به الطبيعة، فعاش حياة بسيطة في كل مظاهرها، ولكن عندما تقدمت وتطورت الحياة المدنية حملت معها كثير من المشكلات الاجتماعية والصحية، التي لم يعهدها في سالف أوانه، مما حدا بالمجتمعات البشرية للتفكير في القضاء عليها أو حتى التخفيف من حدتها، فتولدت الحاجة إلى الخدمات التطوعية، التي يعد التطوع الصحي أحد أدواتها الفاعلة والمؤثرة، في هذا الفصل سنستعرض أهم الأعمال التطوعية في المجال الصحي على مرّ التاريخ، متناولين أبرز النماذج الموجودة في كل حقبة زمنية:

١- العمل التطوعي الصحي في الحضارات القديمة:

هناك بعض أشكال التطوع الصحي التي قامت بها المجتمعات البشرية في الحضارات القديمة، والتي اختلفت في دوافعها واتجاهاتها وحجمها وشكلها من مجتمع إلى آخر، ومن حقبة زمنية إلى أخرى، حسب حالة السلم والحرب التي يعيشها المجتمع.

فيما يأتي بعض من أبرز نماذج الأعمال التطوعية في المجال الصحي، التي ظهرت في الحضارات القديمة:

- ظهرت بعض أشكال التطوع الصحي في الحضارة المصرية القديمة، عندما بدأ قدماء المصريين الاستقرار على ضفاف النيل، وتشكلت بعض المجتمعات الصغيرة على دلتا النيل وفي الصعيد، فقام بعض المحسنين ببناء الملاجئ للمسنين.
- وفي وقت الحروب والمشكلات في زمن الدولة الرومانية التي قامت بغرض توسيع إمبراطوريتها برزت بعض من مظاهر التطوع الصحي كرعاية مصابي هذه الحروب، والعناية بالعجزة نتيجة هذه الحرب.
- وفي اليونان رغم الطبقية التي سادت المجتمع اليوناني، ورغم شدة الفلسفة اليونانية وعدم الشفقة، إلّا أنه تولدت أيضًا بعض مظاهر التطوع الصحي: كالمساعدات الاجتماعية والصحية، التي قدمت في حالات السيول والزلازل والحرائق، وذلك كان نتيجة من اقتناع الحكام اليونانين بأن سلامة المجتمع اليوناني وقوته مرتبطة بسلامة أفراده وقوة أجسادهم.
- وفي القرن الثامن عشر وبالرغم من التطور الذي أحدثته الثورة الصناعية في بريطانيا، إلا أنها أنتجت العديد من السلبيات في المجتمع، أهمها: الفقر والبطالة، مما أسهم في جعل الشعب الإنجليزي يفكّر في طرق حل تلك المشكلات الاجتماعية والصحية، ومن ثم كانت هي المحرك والمحفز لكثير من الأعمال التطوعية: الاجتماعية والصحية بالشكل المؤسسي الحديث.

٢- العمل التطوعي الصحي في العصر الإسلامي:

مفهوم العمل التطوعي في عالمنا الإسلامي يرتبط بقيم التكافل الاجتماعي، فالشريعة الإسلامية حثّت على بذل المال في وجوه الخير المتنوعة، على سبيل التطوع بالصدقة المالية. ويعد التطوع الخيري والصحي من أبرز سمات المجتمعات الإسلامية، حيث اهتم الإسلام بالعمل التطوعي الصحي، وبتخفيف المعاناة والألم التي يتعرض لها أفراد المجتمع، كما اهتمت الحضارة الإسلامية بتنمية الجوانب الإنسانية والخيرية في بنائها للفرد والمجتمع، ومزجت بين العقل والروح، فامتازت بذلك عن كثير من الحضارات السابقة، وجعل فعل الخير والصالحات ركنًا أساسيًا في العقيدة، وأجزل المثوبة للمتطوع في جميع المجالات، ومن بينها المجالات الطبية.

فيما يلي نستعرض بعض نماذج التطوع الصحي في العصر الإسلامي:

- زيارة المرضى: زار رسولنا وحبيبنا محمد ﷺ غلامًا يهوديًا عندما مرض، وهو من أعمال التطوع الصحي النبيلة حيث عيادة المريض ترفع معنوياته وتجعله لا يشعر بأنه أصبح عاجزًا مهملًا في المجتمع، بل إن الجميع يهتم به ويرعاه، ومن هنا نجد أن عيادة المريض فضيلة مهما كانت ديانته، وذلك انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فالإنسان بصفة عامّة مُكرّم؛ وأفرد البخاري بذلك بابًا خاصًا

في صحيحه فقال: «باب عيادة المشرك»، كما جاء في حديث أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ غُلامًا لِيَهُودَ، كَانَ يَخْدُمُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمرِضَ فَأَتَاهُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ، فَقَال: «أَسْلِمْ» فَأَسْلَمَ[1].

بل إن رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم يرتفع بروح وإيمان المريض إلى السماء، عندما يخبره أن مرضه هو كفارة لذنوبه، وتعظيم أجره إن صبر، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما يصيب المسلم من نصب، ولا وصب، ولا هم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلَّا كفَّر الله بها من خطاياه**»[2].

كما جاء عن المنصور الموحدي (ملك دولة الموحدين بالمغرب): أنه كانت له زيارة أسبوعية للمستشفى المنصوري بمرّاكش، ليطمئن فيها بنفسه على أحوال المرضى.

◄ برزت في الدولة الإسلامية المستشفيات المتنقّلة، التي كانت تتنقل بين جميع أصقاع الدولة الإسلامية، لتشمل القرى والمناطق النائية، لتقديم الرعاية الصحية، وفي كثير من الحالات كان العلاج مجانيًّا للجميع، وبالمستوى نفسه من الخدمة، دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم، ولا أبيض أو أسود، ولا غني أو فقير، دالًّا على رقي إنساني في نفوس كثير من الأطباء والممرضين المسلمين عبر التاريخ، وكانت المستشفيات المتنقّلة تحمل على مجموعة كبيرة من الجِمال، ومزوّدة بالأدوية وبالآلات العلاجيّة، ويرافقها عدد من الأطباء.

---

(١) أخرجه البخاري (٧/١١٧ رقم٥٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧/١١٤ رقم٥٦٤٢).

- الرعاية الطبية لنزلاء السجون، وهو ما يعكس النظرة الإسلامية الرحيمة للمريض والنظرة الإصلاحية للفرد، وأنه قابل للتغير والتحسن، من ذلك ما نص عليه الفقهاء من وجوب تمكين السجين من الطهارة، التي تعد من العوامل الوقائية المهمة من المرض. وكان عمر بن عبدالعزيز خامس الخلفاء الراشدين يكتب إلى عماله: انظروا من في السجون وتعهدوا المرضى. وهذا الخليفة العباسي المعتضد يأمر بألف وخمس مئة دينار شهريًا لنفقة المسجونين وحاجاتهم وعلاجهم ونحوه. وأيضًا ما كتبه الوزير علي بن عيسى بن الجراح إلى سنان بن ثابت رئيس أطباء بغداد: «فكرت في أمرِ مَن في السجون، وأنه لا يخلو مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم أن تنالهم الأمراض؛ فينبغي أن تُفرد لهم أطباء يدخلون إليهم كل يوم، وتُحمل إليهم الأدوية والأشربة، ويطوفون في سائر الحبوس، ويعالجون فيها المرضى».

- نظام الأوقاف الخيرية للمشاريع الصحية، فقد كانت مستشفيات كاملة تعتمد على ريع وقف يرصده أحد المسلمين، كما كان المستشفى المنصوري الكبير الذي أسسه في القاهرة الملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٨٣هـ، وأوقف عليه ما يُغَطّي نفقاته سنويًا. كما شملت الأوقاف دعم الكتب الطبية ما أنتج كثير من الكتب الطبية الشهيرة، مثل كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة، الذي جمع فيه العلماء الذين عملوا بالطب من عهد الإغريق والرومان والهنود، حتى

عام ٦٥٠ للهجرة، وكتاب (الحاوي في الطب) للرازي، الذي يعد موسوعة عظيمة في العلوم الطبية، شملت على ملخصات لأطباء إغريق وهنود إلى جانب تجاربه الخاصة وملاحظاته الدقيقة.

- توجيه أبو بكر الرازي تلاميذه أن يُعالِجوا الفقراء بمثل الاهتمام والعناية، التي يعالجون بها الأمراء والأغنياء، وأن يكون هدفهم الأول إبراء مرضاهم، أكثر من نيل أجورهم منهم، وأن يُوهموا المرضى بالشفاء حتى لو كانوا هم أنفسهم لا يعتقدون بذلك؛ فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس.

٣- العمل التطوعي الصحي في العصر الحديث:

مع التطور الزمني للحياة البشرية كان للتطوع الصحي نصيبه أيضًا من التطور لأسباب عدة، من ضمنها: التطور التقني الذي جعل العالم أشبه بقرية صغيرة، وأمكن من تناقل العلوم والإنجازات العلمية بين الجميع، بعد أن كانت محصورة لدى عدد قليل من البلدان، فتعددت أساليب ومظاهر التطوع الصحي، مع تعدد وتعقد حاجات الإنسان ما أدى في العصر الحديث إلى تأطير الأسس والقواعد له، باعتباره علمًا متكاملًا، وعليه تم تدريسه في بعض الجامعات، وتعقد من أجله العديد من الندوات والمؤتمرات.

سنبرز هنا أهم التجارب والنماذج للعمل التطوعي في المجال الصحي في العصر الحديث:

◈ **العمل التطوعي الصحي في المملكة المتحدة:**

◄ كانت إنجلترا قبل قيام الثورة الصناعية تئن تحت وطأة كثير من المشكلات الاجتماعية والصحية، مما دفع المسؤولين للاهتمام بالخدمات الاجتماعية والصحية، فظهرت قطاع الطوائف، وأصبح لكل طائفة هيئة تقدم بعض المساعدات والرعاية، إلا أنها لم تستطع القضاء على تلك المشكلات، ما أدى إلى تدخل الحكومة، وأصدرت قانونًا في ١٥٣٦م لجمع تبرعات خيرية، وتوزيعها على المحتاجين والمرضى، وفاقدي البصر والصم والعجزة، ويشجعون على العمل في الحدود التي تسمح بها حالتهم الصحية. ولكن الوضع أيضًا لم يتحسن كثيرًا، فصدرت عدد من التشريعات الاجتماعية فيما يختص بالتأمين الاجتماعي والصحي ضد الفقر والمرضى، وأنشأت مؤسسات لصرف المواد الغذائية والأدوية للفقراء. وفي عقد التسعينيات تطور العمل التطوعي الصحي في المملكة المتحدة، وبدأ يأخذ الشكل المؤسسي.

◈ **العمل التطوعي الصحي في الولايات المتحدة الأمريكية:**

◄ في الولايات المتحدة الأمريكية تأثر النظام الاجتماعي والسياسي بما هو سائد في إنجلترا بسبب الاستعمار، فكانت تطبق بمبادئ القانون الإنجليزي للفقر، وبدأت في إنشاء بيوت الإحسان لإيواء المقعدين والعجزة، وإقامة الملاجئ لمرضى العقل، كما شملت تلك الخدمات المعاقين والمصابين. وبعد استقلالها من إنجلترا قامت بتعزيز البحوث العلمية في شتى المجالات، ومن ضمنها العمل التطوعي في المجالات الصحية، فبدأت بسن العديد من القوانين بهدف رفع مستوى الفقراء صحيًا وأخلاقيًا، كما قامت بتأسيس العديد من الجمعيات الخيرية الصحية، يعمل بها عدد كبير من المتطوعين، مثل: إنشاء أول معهد للمكفوفين ١٨٣٢م، وتنظيم جمعية الصليب الأحمر الأمريكية ١٨٨١م، وصدور القانون الفدرالي في مجال الرعاية الاجتماعية في ١٩٣٥م، الذي اشتمل على نظام الضمان الصحي، والتأمين الاجتماعي لرعاية الشيخوخة، كما اهتمت بإنشاء المؤسسات التعليمية والبحثية الخاصة بالمجالات الصحية. واليوم تقف الولايات المتحدة الأمريكية على تجربة ناجحة نسبيًا في مجال التطوع الصحي، فقرابة ٢٨٤٣ مستشفى فيها غير ربحي من أصل ٥٥٣٤ مستشفى في جميع الولايات المتحدة الأمريكية.

◈ **دور الأمم المتحدة في تفعيل العمل التطوعي الصحي:**

◄ في عام ١٩١٩م تم تأسيس الاتحاد الدولي لجمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر في باريس في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وهو أكبر منظمة إنسانية في العالم، ويضم الاتحاد ١٩٠ عضوًا، وأكثر من ٦٠ بعثة موزعة حول العالم لدعم أنشطته، يُذكر أن الهلال الأحمر يُستخدم بدلًا من الصليب الأحمر في العديد من الدول الإسلامية. ويقوم الاتحاد بتوفير العون والمساعدة بدون تمييز، ومن أبرز أهدافه الإستراتيجية هي التمكين من أجل حياة صحية آمنة، الذي يشمل أنشطة طويلة الأمد، مثل برامج تعزيز الصحة والوقاية، مواجهة حالات الطوارئ، والإسعافات الأولية، مكافحة الأوبئة، فضلًا عن توفير الرعاية النفسية والاجتماعية. وقد أسهم متطوعو الصليب الأحمر والهلال الأحمر في المبادرة العالمية لمكافحة شلل الأطفال في العام ٢٠٠٠م، التي بلغت من حيث الموارد البشرية والمادية ما تصل قيمته إلى ١٠ مليارات دولار أمريكي.

وفي عام ١٩٨٥م حددت الأمم المتحدة يوم الخامس من شهر كانون الأول/ ديسمبر يومًا للتطوع العالمي من كل عام، لتصبح احتفالية سنوية لغالبية بلدان العالم لرفع وعي الجمهور بأهمية التطوع للمجتمع ولشكر المتطوعين على مجهوداتهم. وقد بدأ اهتمام الأمم المتحدة بالعمل التطوعي يتزايد في الألفية الثالثة، والاقتناع بأنه أصبح ذا أهمية كبرى على كافة المستويات الإنسانية

والاجتماعية والصحية والاقتصادية والثقافية، التي تستلزم اعترافًا أكثر، ودعمًا لبرامجه وخططه، وتشجيعًا للقائمين عليه.

وتفعيل لهذا الاهتمام أعلنت الجمعية العامة للأمم المتحدة في قرارها ١٧/٥٢ في عام١٩٩٧م، اعتبار العام الأول من الألفية الثالثة (٢٠٠١م) عامًا للتطوع. وتم تعيين برنامج متطوعي الأمم المتحدة جهة تنسيق للتنفيذ والمتابعة.

وقد شهد العصر الحديث الكثير من النماذج المضيئة في حب الخير والدعم الخيري في المجالات الصحية، من أبرزها:

- مارك زوكربيرج مؤسس موقع التواصل الاجتماعي الشهير فيسبوك (Facebook) تبرع وزوجته بـ ٩٩٪ من أسهمهما في الشركة (التي تقدّر بحوالي ٤٥ مليار دولار) إلى جمعيتهما الخيرية، للإفادة في عدة مجالات من ضمنها المجال الصحي.
- أوجينيا بودسون وهي مواطنة أمريكية تعمل في مجال الحلاقة، توفيت في نهاية ٢٠٠٥م عن عمر يناهز المئة عام، أوصت بنحو ٣٥ مليون دولار لمركزي أبحاث مرض السكري ومرض السرطان، اللذين يتبعان جامعة فلوريدا. وقد عاشت حياتها كلها في تواضع، لتتمكن من تحقيق أهدافها الخيرية.

وفي العالم العربي قام الكثير من الأمراء والأثرياء بمبادرات مشابهة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- الأمير ورجل الأعمال السعودي الوليد بن طلال قام بإنشاء

مؤسسته الخيرية (مؤسسة الوليد الإنسانية) التي دعمت الكثير من المشاريع الإنسانية في أكثر من ٩٠ بلدًا، بإجمالي يبلغ ٢,٤ مليار دولار في مجالات عدة، من ضمنها تقديم الإغاثة الحيوية في حالات الكوارث، ومؤخرًا قرر التبرع بجميع ثروته (٣٢ مليار دولار) لمصلحة الأعمال الخيرية.

- الشيخة لبنى بنت سليمان العليّان، وهي عضو في مجلس إدارة البنك السعودي الهولندي، ومسؤولة الاستثمارات العائدة لمجموعة العليان في المملكة العربية السعودية، ورئيسة مؤسسة سليمان العليان الخيرية، التي تقدم المساعدات في مجالات عدة، من ضمنها المجال الصحي، فقد تبرعت المؤسسة بنحو ٢٦٦ ألف دولار أمريكي لرعاية مرضى الفشل الكلوي (كلانا)، وغيرها من الأعمال الخيرية في المجال الصحي.
- الشيخ ماجد الفطيم، وهو رجل أعمال إماراتي، يعمل في مجالات العقارات وتجارة التجزئة، أنشأ مؤسسته الخيرية (ماجد الفطيم الخيرية)، التي بلغت قيمة تبرعاتها في عام ٢٠١٣م حوالي٢٣ مليون دولار أمريكي في مجالات عدة، من ضمنها المجال الصحي من خلال برامج الرعاية الصحية، وبرامج التوعية الصحية، وفي عام ٢٠١٤م تبرعت المؤسسة بنحو ٧ ملايين دولار أمريكي لقسم العناية المركزة للأطفال الحديثي الولادة في مستشفى لطيفة، و٤ ملايين دولار أمريكي لتأسيس مركز جديد لغسيل الكلى في مستشفى الفجيرة، وفي عام ٢٠١٥م أسهم في دعم مؤسسة الهلال الأحمر الإماراتية بمبلغ ٤٠٠ ألف درهم إماراتي.

- الشيخ عبدالرحمن بن حمود السميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ داعية وطبيب كويتي، قضى ٢٥ سنة في أفريقيا في أعمال الخير، ومن ضمنها المجال الصحي.

- محمد فريد خميس من أغنياء مصر، ومؤسس ورئيس مجلس إدارة شركة النساجون الشرقيون، أنشأ مؤسسته الخيرية (فريد خميس لتنمية المجتمع)، من أهم أعمالها في المجال الصحي التبرع بإنشاء ثلاث وحدات صحية في ثلاث محافظات مصرية.